

1

في ظل غياب مناخ الحرية والممارسة الحقيقية للديمقراطية

المثقف بين التقزيم الهادف والتغييب الممنهج

كيف هي العلاقة بين المثقف والسلطة ولماذا يبقى المثقف الذي ينتقد السلطة وينشد ثقافة حرة رهين الهامش وإلى أي مدى يتمتع المثقف العربي بحريته في بلده، وماهي انعكاسات هذه العلاقة السلبية على المجتمعات العربية ؟
طرحنا هذه التساؤلات على نخبة من المثقفين العرب فجاءت إجاباتهم كالتالي:

■ عقيلة.ر/الحلقة الأولى


هشام آدم


محمد سعيد الريحاني


ماجد أبو غوش

هشام آدم" كاتب وروائي سوداني"

"المثقف يعاني من أزمة الهوية"

■ هنالك إشكالية محددة في تعريف الثقافة على أساس أنها شكل واع من أشكال المعرفة البشرية، والتي بدورها تعمل على ترسيخ أساسيات التفكير المنطقي، وزيادة الوعي بالمدرك العام، والذي هو عبارة عن مخزون العقل البشري الناتج عن إفرازات الحراك الاجتماعي، والسياسي، والطبيعي .ولا توجد تفصيلة تجعلنا نغوص لنعرف الفارق بين الثقافة والحضارة والمعرفة لأنها دوائر متداخلة، فالمعرفة تُشكل ثقافة، والإنسان صاحب الثقافة هو الذي يصنع الحضارة .إذاً فالمعرفة هي الأساس الفلسفي لمجموع المنتجات الواعية .ولأن معطيات المجتمع تؤثر في الإنسان مادة هذا الحراك والمنتج الحقيقي له، فإن هذه المعطيات تدخل بطريقة غير مباشرة في تكوين هذا الوعي وتشكيله أو قولبته .حيث لا يستطيع الإنسان عموماً، والمثقف بصورة خاصة أن يعيش بمعزل عن هذه المعطيات الخارجية .

ومن نافلة القول أن هذه المعطيات في شكلها الجدلي المتغير تنقسم إلى معطيات موضوعية وهي كل ما يحيط بالإنسان من مادة تساعد في تشكيل هذا الوعي العام أو ما يسمى بالوعي الجماعي والتأثير عليه .وهذه المعطيات لا يمكن السيطرة عليها، بل هي التي تولد لدينا نزعة البقاء، وتجبرنا على خوض صراعاتنا على أساسها .ومعطيات ذاتية وهي التي تشكل الوعي الفردي، وتلعب دوراً كبيراً في تحديد اتجاهات وميول الأفراد بمنأى عن الصيغة الجماعية، وفي الغالب فإن هذه المعطيات الذاتية هي التي تعطي السمة الاختلافية بين كل فرد وآخر في تعاطيه للصراع .وجزء من هذه المعطيات الذاتية يدخل بشكل فاعل في بناء الشخصية الفردية، والتي هي من أهم الخصائص التي يعتمد عليها علماء النفس في تفسير الظواهر السلوكية .

وبما أن لا شيء ساكن في هذا الكون، فإن المعرفة والوعي والمعطيات الخارجية(المادة)في تغيير وحركة مستمرين، فإننا نرى تطور الوعي والمعرفة، وتوالد حضارات على أنقاض حضارات أخرى بائدة .إذاً فهو شكل من أشكال الصراع يمتاز بالتجدد، وفي اعتقادي الخاص فإن أزمة المثقف العربي تتمثل في أمرين غاية في الأهمية هما :الصراع مع السلطة على أعتباره شكلاً من أشكال القهر الفكري الذي يجعل حركة التعاطي مع المعطيات الخارجية أكثر صعوبة وأقل سلاسة، وبالتالي فإن عملية تشكل الوعي أو – إذا جاز لي التعبير– عملية الاستفادة من الصراع المعرفي المتجدد تتباطأ، مما يخلق نوعاً من العجز الزمني أو التفاوت بين المتغيرات المادية والوعي الفردي للمثقف .وعندما لا يكون المثقف مواكباً لهذا التغير المتسارع تنتفي عملية الصراع القائمة أصلاً على نظرية الاندثار والاستحداث، فتصبح المعطيات المستفادة معطيات لا قيمة لها ولا جدوى لعدم تطابقها مع الواقع المعاش، كما أن صراع المثقف مع السلطة ينتج في الأساس عن رفض الوعي بالتسليم لقوالب معرفية جاهزة "مسبقة الصنع"وينصرف المثقف عن صراعه مع المعطيات الخارجية والحركة المتجددة بصراعه مع السلطة .وإذا اعتبرنا أن السلطة شكل من أشكال المعطيات فإن حصر الصراع في جزئية واحدة من منظومة جزئيات، فإنها تؤدي إلى عدم المواكبة أو ما يُسمى بالوعي السلبي الذي ينتج في حصر أدوات المعرفة في شكل واحد من أشكالها المتعددة .

كما أن إشكالية الهوية هي إحدى المعوقات التي تجعل المثقف العربي يقع تحت أزمة حقيقة ناتجة عن عدم قدرة المثقف على الوقوف على قاعدة انتمائية محددة .وتنشأ ضرورة الانتماء عن فكرة التمثيل الواعي التي تساعد في تشكلها المعطيات الذاتية ، حيث تعمل هذه المعطيات على تحديد الميول والاتجاهات الفكرية والعقائدية كذلك .وقد يتغير سلوك الفرد العقلي بحسب ما تمليه عليه قناعا ته الفكرية، حيث تعمل الهوية والانتمائية على تكوين بنية وعي لدى الفرد .للتوضيح" :شعراء العصر الجاهلي "و" شعراء صدر الإسلام "إن لكل مؤسسة اجتماعية شكلها الوعيوي الذي يُميزها عن أية بيئة أخرى، فالعصر الجاهلي يمتاز في مجمله بالفكر الوثني وباستئثار المادية على السلوك التفكيري لديهم لذا نجد أنهم يعبرون عن واقعهم بشعر ملتصق تماماً بهذه الفكرة .كما نجد أنهم لا يؤمنون إلاّ بكل ما هو مادي محسوس يرونه بأعينهم المجردة أو بأدوات المعرفة الحسية .لذا فهم لا يؤمنون بالغيبيات ولا بالمثاليات التي جاء بها الإسلام لاحقاً .والإسلام جاء بمعطيات فكرية مثالية جديدة تعتمد على القوى الروحانية والقدرية والغيبية والمشيئية، فنجد أن شعراء صدر الإسلام وتحديداً(المخضرمين)منهم تغير شكل الوعي لديهم لتغير انتمائهم .

إضافة إلى إشكالية الهوية والصراع مع السلطة لدى المثقف العربي، فإن هناك إشكالية لا تقل أهمية عن هاتين الإشكاليتين ألا وهي إشكالية اللغة وأزمة المصطلحات .وفي اعتقادي فإن اللغة بشكلها الحالي عاجزة عن التعبير ولا توازي المد الفكري المادي الذي نعايشه في هذا العصر .إن اللغة – في نظري – تستمد قوتها من شكل الوعي وليس العكس .لذا فإننا نجد ظاهرة محاولات التعريب والتي غالباً ما تكون قاصرة وعاجزة عن التدليل والتوفيق بين ماهية الأشياء والتعبير عنها لفظياً .وهنا يتعلق الأمر بارتباط الوعي بالمادة التي هي مصدر التغذية البنيوية لها .ولا غرابة إذا كنا نستخدم ألفاظاً من لغات أخرى للتدليل على ماديات لم نرتبط بها عقلانياً أو فكرياً .للتوضيح :اللغة العربية هي أكثر اللغات التي يمكن أن تعبّر عن العلوم الإنسانية والمعاني الروحية والغيبية لأنها مرتبطة بها فكرياً .اللغة اللاتينية هي أكثر اللغات التي يمكن أن تعبّر عن العلوم الطبيعية والماديات لأنها مرتبطة بها فكرياً .وعلى المثقف العربي أن يحاول تحليل هذه الإشكاليات بنوع من الشفافية ليتمكن من ممارسة الوعي بشكل أكثر نضجاً وأكثر مواكبة للمتغيرات اليومية.

ماجد أبوغوش" شاعرعضو الأمانة العامة للاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين"

"الثمن في بعض البلدان العربية مرتفع عند انتقاد السلطة"

■ حسب رأيي يجب أن تكون العلاقة بين المثقف والسلطة علاقة وحدة وصراع وأن لايكون المثقف بوق للسلطة ولا فاس هدم لبنائها، وهذا ينطلق من دفاع المثقف الدائم عن الحريات وعن حقوق الجماهير الواسعة، وطبعا هذا يختلف من بلد عربي لأخر فالثمن في بعض البلدان العربية مرتفع عند انتقاد السلطة القائمة وهذا بشكل طبيعي يؤدي إلى تهميش هذا المثقف وعزله والتعتيم عليه وحتى تجويعه، السلطة بشكل عام تطلب الخضوع التام من الموظف وهي تحارب حريته في الإبداع، المثقف الموظف في أي سلطة حتى لو كانت ثورية لا يقدم نصا مبدعا ، وطبعا يكون تأثير هذا سلبا على المجتمعات العربية لان هذه الأنظمة تقدم للجمهور جانب واحد من الصورة(الجانب الذي تريده)مثل الفضائيات الرخيصة التي تملأ بيوتنا وتفرض علينا لونا واحدا من الفن والثقافة ينظر للعولمة والنمط الاستهلاكي في الحياة والفن الهابط، المثقف الحر في مجتمعاتنا العربية المدى مغلق أمامه ، فهو محروم من حضور المهرجانات ومن النشر بشكل لائق ومستثنى من عملية الترجمة ومن الظهور على الشاشات المحلية في أغلبية الأقطار العربية!

محمد سعيد الريحاني" كاتب مغربي"

"الثقافة خَصّمُ السلطة، وموازين القوة بينهما دائما غير متكافئة"

■ تظهر السلطة حين تختل العلاقة بين جهتين ويعتل التكافؤ بين طرفين أيا كانت هده الجهة وأيا كان هذا الطرف فتتغير الأدوار طبقا لوضع اللاتكافؤ الجديد فتتحول الشخصيات إلى راع ورعية وتتحول الثقافة إلى رسمية وشعبية وتتحول الجغرافية إلى مركز وهامش...

السلطة إذن هي" ممارسة عنف رمزي"، بتعبير بيير دي بورديو، لكن أول علامات السلطة هو" القبول "بها وبعنفها، فمتى بدأ القبول بعنفها تجذرت السلطة واستشرت ومتى رُفضت وعورضت، كسرت شوكتها وبهت جشعها، وهذا بَالضبط دور الثقافة، على الأقل في مفهومها الحداثي :دمقرطة العلاقات الإنسانية، مقاومة التفاوت والهيمنة في الإنتاجات الرمزية، الاهتمام بأشكال التواصل الإنساني ...

السلطة صفة تتعلق بالضغط في تقرير الأمور وتدبير العلاقات والتحكم في المصائر والانفراد بالرأي... ولذلك فهي تتلون حسب مجال اشتغالها .فقد تكون سلطة سياسية أو دينية أو ثقافية أو قبلية أو عرقية أو غيرها .

ولأن الثقافة هي في الآن ذاته ضمير الإنسانية والمدافع عن الحرية والعدل والمساواة، فإنها تبقى الخصم المفترض الأول للسلطة التي يستحيل تصورها دون إرادة في الهيمنة والامتلاك والاحتواء لهذا السبب، كانت موازين القوة بينهما دائما غير متكافئة :فمتى ضعفت السلطة وخفت بريق مصداقيتها، تقوَت الثقافة ودوى صوتها في كل مكان كما حدث في روسيا القيصرية مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؛ ومتى تعاظمت السلطة وعلا شأن رجالاتها، تقزمت الثقافة وقل تأثير المثقفين كما هو الحال في البلدان العربية مجتمعة ...

في علم الفلك الحديث، يقدر العلماء نسبة الأجسام المرئية في الكون من كواكب ونجوم وسديم ومذنبات وشهب ونيازك ب ستة في المائة أما الباقي وهو أربعة وتسعون في المائة من الكون فيبقى لما كان يوصف في الماضي ب"الفراغ "وصار اليوم يعرف ب"المادة السوداء "وب"الطاقة ."وهدا المثال بليغ للغاية كما أن هده النسبة هامة جدا لأننا سنصادفها أيضا في علم النفس عند تقسيم الذات الإنسانية إلى ثلاثة أقسام يهيمن فيها" اللاشعور "على أربعة وتسعون في المائة بينما يترك الستة في المائة المتبقية ل"الشعور "و"الأنا الأعلى..."

أعتقد بأن هذه النسبة التي تتحكم في الكون والعقل البشري هي ذاتها المتحكمة في مصائر المجتمعات والأمم قاطبة، فليس" اللاشعور "في حياة الأفراد غير" التاريخ "في حياة الأمم؛ وليس" الأنا الأعلى "غير" الثقافة "أو" الضمير الإنساني"؛ وليس" الشعور "شيئا آخر غير وظيفة الموازنة بين" الأنا الأعلى الجماعي "و"حركة التاريخ"، تلك الوظيفة التي قد تلين وتضعف كما يمكنها أن" تتعاظم وتتسلط "فتصبح وساوس وعُصاب وأمراضا" تسلطية "كان التجسيد الحي لها" هتلر "و"بوكاسا "و"بينوتشي..."

إن الخلود للتاريخ وحده، أما حصة" الثقافة "وحصة" السلطة "فمتساويتان .وعليه، فإن" تدني كفة الثقافة "لصالح" علو كفة السلطة "لا يمكنها أن تشير إلا إلى الظروف الذاتية والموضوعية للثقافة والمثقفين وتكشف عن مواطن الخلل في هذا الحقل الفاعل، حقل الثقافة .ويمكن حصر مواطن الخلل هذه في ثلاث نقاط:

النقطة الأولى :وتتمحور حول كون المثقف العربي الذي يناهض السلطة على" المستوى الرمزي"، لا يقوم بالدور الموازي لهذه الوظيفة على" أرض الواقع ."فليست للمثقف العربي ثقافة تبني المواقف الشجاعة مما يحدث حواليه وما يمرر عليه من قرارات وما يشهد عليه من شطط .إنه يتبنى المواقف ضد" أعداء الوطن من الأجانب "فقط ولكنه لا يستطيع فعل نفس الشيء مع" أهل السلطة "من" أهل البلد...!"

النقطة الثانية :وتتمركز حول المبدع العربي الذي يحارب السلطة داخل نصوصه التخييلية من خلال التعددية اللغوية، وتنويع زوايا النظر، وتكسير السرد ولكنه لا يستطيع رفع أصبعه اعتراضا على ما يحدث حوله ...!

النقطة الثالثة :المثقف العربي يعيش في الهامش لأنه يعتزل المواجهة على أرض الواقع ليتفرغ للكتابة وهو لا يعي حجم 67 من الأمية في العالم العربي وحجم تدهور التعليم والتعلم لدى الفئات المحسوبة في السجلات الرسمية" فئات متعلمة..."

قد يكون التهميش الذي يعيشه المثقف العربي عقابا ذاتيا يمارسه المثقف على نفسه، نوعا من المازوكية .ولكن تهميش المثقف العربي في الآن ذاته يبقى" صناعة عربية "بامتياز تتفنن الدول العربية في صياغتها ورعايتها وتبادل الخبرات حولها فيما بينها...

"الحرية "قيمة محورية تتمركز حولها الثقافة في كل مكان وكل زمان .ولكنها ليست المحور الغالب للأعمال الفكرية والإبداعية والنقدية العربية إلا إذا كانت" الحرية "مقترنة باستقلال الوطن ومقارعة المحتل أو كانت مقترنة بنقيضها الثابت" العبودية "و"الأسر ."أما" الحرية "الحقيقية المرتبطة بتحرير القوى والأصوات العميقة داخلنا عبر مصالحتها والمصالحة معها من خلال توحيد القول والفعل، توحيد الفكر والقول، توحيد الفكر والفعل، توحيد الصوت والصورة ...فتكاد تكون نادرة في الثقافة العربية .

"الحرية"، بمعناها الكامل إذن، تقتضي التحرر من الخارج ومن الآخر ولكنها أيضا تقتضي تحرير الداخل، تحرير الذات .إلا فما جدوى التحرر من المعمر ومن الآخر مع الحياة مكبلا من الداخل؟

المثقف العربي كفرد هو حر ولكنه حين يسعى لتحرير من حواليه يتعرض لأقسى أشكال الأذى المادي والرمزي...

أهم انعكاسات هذه العلاقة السلبية على المجتمعات العربية هو التقزيم الهادف والتغييب الممنهج للمثقف الذي يؤدي حتما إلى تقزيم وتغييب القيم والضمير واحتضان الفوضى والاستبداد...

إن حرية المثقف في بلده رهينة بحرية أبناء بلده حوله .أما حرية الجميع، مثقفين وجماهير، فتبقى رهينة بقيام مؤسسات راعية للحرية وسن قوانين ضامنة لها، وتحرير التعليم والإعلام والبحث العلمي والإبداع بكافة أشكاله من سلطة المركز والواحدية والقرار الفردي ...